مفهوم مصطلح الجاهليـــة

مادة تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام الصف الأول الفصل الأول قسم اللغة العربية

ا.م.د.اياد سالم ابراهيم

هذا التركيب ولأول وهلة يوحي بكثير من التناقض؛ ذلك أن الأدب معنى إيجابي والجاهلي معنى سلبي كما رأينا في الآيات الكريمة . وقد سمي عرب ما قبل الإسلام جاهليين وزمنهم جاهلية لما في الآ يات الكريمة التي ذكرها القران عن لفظة الجاهلية من إشارات إلى الشرك وتكذيب الرسول " صلى الله عليه وسلم " ، وطائفة من المعاني المتّصلة بالضلال والظلم والعصبية القبلية والتبرج و الشرك والجور ... وما إليها من الصفات والقيم العقيدية التي مثلما تحققت في عصر " الجاهليين " تحققت قبلهم وبعدهم، ولعل ذلك سر إشارة الآيةالكريمة إلى وجود جاهلية ثانية وثالثة ورابعة ... كما يفهم من ذكر الجاهلية الأولى .ثم إ ن بعض ما يمكن أن نراه سلبيا الحمية التي قد تكون لدى بعض " الجاهليين "مفخرةلدلالتها على الإباء و رفض الظلم بالرد على المعتدي بمثل اعتدائه كما نجدها في قول

عمرو بن كلثوم :ألآ لا يجهلن أحدعلينا * فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا "

فالجاهلية إذن مفهوم قيمي سلبي إذا ما وجد في عصر ما كان جاهليا. وإذا ما كان هذا المصطلح غير دقيق في دلالته، غير متم ثل الأدب الذي سبق مجيء الإسلام فما المصطلح الأنسب للدلالة على عصر شهد ميلاد أبرز النصوص الخالدة في التجربة الشعرية العربية والعالمية حين راحت القريحة الصافية والطبع النقي والذوق المدرب والنفس الناطقة على سجيتها وصدقها تتعمق حقيقة الهم الإنساني فتجيد تقمصه بتلقائية؟يقول محمد مندور معجبا بشعر الجاهليين عادا إياه الأدب الأول الأساس، والأنموذج الذي لا يمكن أن يتحقق مجددا ": وفي تاريخ الأدب العربي ... ما يزيد من رجحان كفة قديم الشعر على حديثه وهو صدور القديم عن طبع وحياة وصدور أغلب الحديث عن تقليد وفن أي أن شعر عرب ما قبل الإ سلام ينضح بالصدق والحيوية بخلاف غيره من شعرالحضر الذي قد يغلب عليه التكلف .لذلك فإن مصطلح " الأدب الجاهلي " الدال على أدب ماقبل الإ سلام لا نجد فيه دقة في التعبير عن أدب احتوى كثيرا من المضامين والفنيات استمرت مثلا أعلى في الشعرية العربية حتى اليوم . وهذا يدفع إلى تساؤل عميق في مدىدقة المصطلح خاصة حين ندرك أن الشعراء المخضرمين أنفسهم ظلوا متأرجحين بين تقاليد " الشعر الجاهلي " ومتطلبات مجتمعهم الجديد عاجزين عن إيجاد فن شعري مختلف يتقمص روح المجتمع الإسلامي ، فظل الشعر الجاهلي مرجع الشاعر المسلم وغير المسلممدة طويلة ، وهو ما يزال إلى اليوم مرجع كل الشعراء لما احتواه من أسس معجميةوموسيقية، ولعل سبب كل ذلك هو تلك الطاقة التعبيرية التي وفقت في ولوج أبعاد إنسانيةهامة مما جعل تجربة شعراء الفترة الجاهلية إنسانية أفلتت من بيئة محددة زمنا ومكانا. فالشعر الجاهلي بهذا المفهوم لم يكن في كثير من الأحيان جاهليا رغم كونه نابعا في حيز جاهلي، لأن الشاعر وهو مثقف عصره في الجاهلية - في كثير من الحالات يتجاوزعصره ويتجاوب مع رؤى المستقبل أكثر من تجاوبه مع رؤى الحاضر ؛ لذلك كان أشبه بالنبي الذي يثور ضد ضلالة الحاضر والماضي مبشّرا بالمستقبل . يمكن أن ننسب الشعرإذن للحيز الزمني لا للجهل وا لجهالة؛ لأن داخل هذا الحيز استطاع الشعر تجاوز العصرالذي كان شعراؤه في أغلب الحالات غريبين عنه رافضين كثيرا من قيمه مقترحين بدائل قيمية تقترب ا قترابا واضحا مما جاء به الإسلا م، كما نجد ذلك لدى زهير وعنترةوالصعاليك ... ولعل هذا الأمر هو الذي دفع النقاد القدامى إلى اعتماد الفنيات المتجلّيةفي كثير من شعرهم مثالا يحتذى مبعدين عقيدة الشاعر في تقويم الشعر . لذ لك يتط لب قبول هذا المصطلح تحفظا وفهما دقيقا لخلفياته، ولنا بعد ذلك أن نتساءل ": لماذا لا يسمى غير العرب ممن انطبقت وتنطبق عليهم هذه الشروط جاهليين، ولماذا لا يسمى أدبهم جاهليا؟هذا التساؤل نسقطه أيضا على دعوى الجاهلية التي ظهرت لأسباب سياسية في أشعارأموية وأخرى كثيرة جاءت وتجيء بعدها في شعر كثير من الأمم؟ . ثم إننا حين نتأمل قيم العفة والسلم والكرم و الكرامة كما تمثلها شعر كل من عنترة وزهير والشنفرى ، وكماتمثلها شعر كثير من بني عصرهم ، لو تأملناها لوجدناها إسلامية الروح و الرؤية في جوانب حيوية، لكونها ذات بعد إنساني نبيل لا يناقض فطرة الإنسان الصافية . وقد تكفي الإشارة في هذا السياق إلى تعلق النبي صلى الله عليه وسلم بعنترة لقوله:

ولقد أبيت على الطوى وأظلُّه حتّى أنال به كريم المأكل .

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " : ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة

تُثير كلمة « الجاهلية » قضايا عديدة، فهي في الحقيقة مصطلح مستحدث أطلقه الإسلام على المرحلة السابقة للبعثة النبوية، فهو من هذه الناحية تكتنفه الدلالة الدينية، مما دفع بعض الباحثين إلى القول : إنَّ مصطلح الجاهلية « مصطلح ديني له غاية محددة حين ظهر الإسلام ، هي حث العرب على التخلص من كل نقيصة كانت لهم في عهد ما

قبل الإسلام، بل تنفيرهم من ذلك وترغيبهم فيما جاء به الإسلام من خلق سوي أراده الله تعالى لهم » ، ويعمد باحث آخر إلى النأي عن استخدام مصطلح «الجاهلية » لأنه في تصوره مصطلح مضلل، ويؤثر استبداله بمصطلح آخر هو « مرحلة ما قبل الإسلام » لأنه يرى أنَّ مصطلح الجاهلية « قد ارتبط بفكرة سائدة وغير حقيقية ترى في هذه الفترة من حياة العرب إظلاماً تاماً في كل نواحي الحياة، فهي من الجهل والجهالة العمياء، وكثيراً ما يؤكد هذا المعنى في قولهم « جاهلية جهلاء وضلالة عمياء » على حين انه كان للعرب حضارتهم المتطورة قبل الإسلام بزمن طويل، فالتسمية بالجاهلية تسمية دينية قصد منها التنفير من هذا العهد وآثاره، وليست تسمية علمية»

وتشتمل كلمة « الجاهلية » على دلالات متعددة، فهي مرة تدل على « الجهل الذي هو ضد العلم، ومن الجهل بالقراءة والكتابة، ولهذا ترجمت اللفظة في الإنكليزية ***The Time Of Ignorance*** وفهمها آخرون أنها من الجهل بالله وبرسوله وبشرائع الدين وباتباع الوثنية والتعبد لغير الله، وذهب آخرون إلى أنها من المفاخرة بالأنساب والتباهي بالأحساب والكبر والتجبر .»

والجهل كما يرد في لسان العرب « نقيض العلم... الجهالة أنَّ تفعل فعلاً بغير العلم ...والمعروف في كلام العرب جهلت الشيء إذا لم تعرفه، غير أنَّ هذه الكلمة تتضمن دلالات أخرى، فهي قد تدل على « نقيض العلم » أو قد تدل على« الجهل الذي هو ضد الخبرة، يقال هو يجهل ذلك أي لا يعرفه »، وقد أكد ابن منظور أنَّ الجاهلية « زمن الفترة ولا إسلام ... وهي الحال التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك» .

وقد توقف المستشرقون عند كلمة الجاهلية، فالمستشرق جولد تسيهر يرى أنَّ الشواهد التي وردت في القرآن الكريم لكلمتي « جاهل » و« جاهلية » « قلما تسمح للمرء بأنْ يحدد معنى الكلمتين تحديداً دقيقاً، على أنَّ الجاهل في شعور المسلمين والمفسرين هو ضد العالم، والجاهلية هي ضد الإسلام، وإذ لم يؤخذ بمعنى التسليم لله بل بمعنى معرفة الله »، وهو يرى أنَّ كلمة « الجاهلية » تعني « عصر الجهل خلافاً للعصر اللاحق وهو عصر العلم [1]»، ويميل رجيس بلاشير إلى أنَّ «كلمة الجاهلية تضم جميع مظاهر العنف والوحشية والتعسف والزهو والتبجح التي حدَّ الإسلام منها، أو قضى عليها بغية إيجاد فضائل أكثر اتزانا وإنسانية » ويرى المستشرق هيوارث « أن ليس الغرض من الجاهلية النسبة إلى الجهالة المناقضة للعلم والمعرفة، وإنما الغرض منها السفاهة التي كانت مؤدية إلى الهمجية وانتشار الضلالة، وعبادة الأوثان والإسراف في القتل واستباحة الزنا والخمر وانتهاء هذا كله بتأريث العداوة وقيام الحروب وتفرق القبائل »وقد آثر عدد من الدارسين العرب معنى مماثلاً لهذا، إذ يرى جواد علي أنَّ
« الجاهلية من السفه والحمق والأنفة والخفة والغضب وعدم الانقياد لحكم وشريعة وإرادة إلهية وما إلى ذلك من حالات انتقصها الإسلام »، ويرى شوقي ضيف أنَّ
« كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز، وما ينطوي فيها من سلوك خلقي كريم .»

ويؤكد هذا المعنى عدد من المفسرين من قدامى ومحدثين، فالطبري في أثناء تفسيره لكلمة الجاهلية يرى أنها تدل على أهل الشرك يقول : « وأما قوله « ظن الجاهلية »فإنه يعني أهل الشرك» ، ويؤكد هذا محمد الطاهر بن عاشور، فالجاهلية هي « المدة التي كان عليها العرب قبل الإسلام ... والجاهلية نسبة إلى الجاهل، لأنَّ الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع » ويؤكد في موطن آخر المعنى ذاته يقول: إنَّ الجاهلية « نسبة إلى الجاهل الذي لا يعلم الدين والتوحيد، فإنَّ العرب أطلقت الجهل على ما قابل الحلم، قال ابن الرومي : بِجَهلٍ كَجهلِ السَّيفِ والسَّيفُ مُنْتضٍ وحلم كَحلمِ السَّيفِ والسَّيفُ مُغمدُ

وأطلقت لفظة الجهل على عدم العلم، قال السموأل: فَليسَ سَواء عَالِمٌ وَجَهولُ

وقال النابغة: وَليسَ جَاهل شيءٍ مثل مَنْ عَلِما

وأحسب أنَّ لفظ الجاهلية من مبتكرات القرآن وصف به أهل الشرك تنفيراً من الجهل وترغيبا في العلم، ولذلك يذكره القرآن في مقامات الذم » إنَّ هذه الدلالات المتعددة لكلمة « الجاهلية » قد أربكت بعض الدارسين ودفعتهم إلى المقارنة بين هذه الدلالات وحال العرب قبل الإسلام، وأخذوا يترددون بين استخدام هذا المصطلح الذي يبدو عندهم مضللاً، أو استخدام مصطلح آخر أقل لمعاناً وبريقاً وهو مصطلح « مرحلة ما قبل الإسلام » .

إنَّ مصطلح « مرحلة ما قبل الإسلام » الذي آثره بعض الباحثين، على الرغم من دعاوى التبرير التي يعرضونها فإنه لا يُعنى إلا بتحديد البعد الزماني لمرحلتين إحداهما سابقة للإسلام وأخرى لاحقة للبعثة النبوية، ويعضد أصحاب هذا الرأي موقفهم في أنَّ مصطلح الجاهلية مصطلح مضلل، ويصل وصفه إلى درجة المبالغة في أنه يرى في « هذه الفترة من حياة العرب إظلاماً تاماً في كل نواحي الحياة »ويتساءل باحث آخر في قوله : « إذا صح أن نطلق على هذا العصر لفظ الجاهلية من وجهة نظر دينية فهل يصح أن نعممه من وجهة نظر علمية ويؤكد أنه لا يستطيع أن ينفي عن هذا العصر« صفات السفه والحمق والأنفة والاستجابة السريعة للغضب وعدم الانقياد والتعصب القبلي والتسلط والتجبر والكبر عن مجتمع هذا العصر، لأنَّ أدبه قد جاء معبراً عنها ومؤكداً لها »، ولكنه يرى « أنَّ

مصطلح الجاهلية قد لا يصلح من وجهة نظر علمية أنْ نطلقه على ما صدر عن هذا العصر من معارف وآداب » ، ومع هذا فإنَّ الباحث استخدم مصطلح الجاهلية في ثنايا كتابه على الرغم من عدم توافقه من وجهة علمية ،وذلك لإيمانه بعدم « جدوى تغييره بعد أنْ أصبح شائعاً على ألسنة المشتغلين بالأدب وفي بطون كتب السلف والخلف »

إنَّ استخدام مصطلح مرحلة ما قبل الإسلام إنما يؤكد الفاصل الزماني بين مرحلتين، ولا يتضمن دلالة أخرى، في حين يتميز عليه مصطلح الجاهلية، فضلاً عن شيوعه واستقراره وثباته وبريقه في أنه يشتمل على التحديد الزماني الذي يتضمنه مصطلح « مرحلة ما قبل الإسلام » من ناحية، ويؤكد أنَّ المرحلة السابقة للإسلام « الجاهلية » تمثل طوراً حضارياً متغايراً عن الطور الحضاري الإسلامي من ناحية أخرى .

ولا يعني هذا أنَّ الطور الحضاري السابق للإسلام لا علم فيه ولا حضارة، وهو ليس إظلاماً تاماً، وإنما هو طور حضاري له خصائصه وسماته وميزاته، وهو يختلف عن طور حضاري آخر أكثر منه رقياً وتقدماً، ولهذا أؤثر استخدام مصطلح « الجاهلية » على مصطلح «مرحلة ما قبل الإسلام » للأسباب التي ذكرتها.

س١/ ما مدلول او ما تعليلك لمصطلح الجاهلية الذي اطلق على الادب الذي انتج قبل الاسلام .

ج/تبعا لما تقدم من كلام .

س٢/ما المصطلحات التي اطلقت على الادب او كيف توجهين المسميات التي اطلقت على الادب فقيل (الجاهلي ،ما قبل الاسلام ،الاسلامي،العباسي،الحديث،الاندلسي،الحديث،العصور المتاخرة)

ج/١-مصطلحات صناعية اصطلح على تسميتها لتمييز العصور ومعرفتها

٢-لتسهيل عمل الدارسين في ميدان تاريخ الادب

٣-لمعرفة النتاج الادبي لكل عصر من العصور تبعا لتصنيف الشعراء وشعرهم وفق العصور

٤-لم تكن هذه التسميات خاضعة للبناء الفني للادب الذي انتج في كل عصر من العصور